مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، فصلية علمية محكمة، العدد الـ٥٣، شتاء ١٣٩٨ هـ. ش/ ٢٠٢٠ م؛ صص ١٠٢-٨١

القهوة في شعر محمود درويش (دراسة دلاليّة)

كريم كشاورزي[١]، محمّدعلي سلماني مروست[٢]*، سيّد فضل الله ميرقادري[٣]، ليلا رئيسي[٤]

١. طالب دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة يزد

٢. أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة يزد

٣. أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شيراز

٤. طالبة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة شيراز

تاريخ استلام البحث: ١٣٩٨/٠١/٢٤ تاريخ قبول البحث: ١٣٩٨/٠٩/١١

الملخّص

تُعتبَر القهوة بمثابة المشروب الاجتماعي الذي مرّت بها التطوّرات الدلاليّة في إطار طقوساتها الثقافيّة وتوظيفها الأدبي من العصر العثماني إلى العصر الحديث. لقد حظيت القهوة بمكانة بارزة عند درويش حيث يعطيها الشاعر بُعداً دلاليّاً عبر سياقها اللغوي ومصاحبتها اللفظيّة مع كلمات كـ الصباح، والمساء، والجغرافيا واليد. يجسّد درويش "القهوة العربيّة" في داخل النصّ الشعري للإشارة إلى مدى علاقتهما وتوظيفها غير المألوف وأيضاً تجربته الشعوريّة والواقعيّة في إزاء الجغرافيّة الوطنيّة والأرض والثقافة العربيّة وأحواله الوجدانيّة. يستلهم الشاعر من القهوة بوصفها المادّة الثريّة الخصبة لإحياء الذكريات الماضيّة وتبيين الهويّة وذات الفلسطيني المقاوم الذي يناهض أمام التشرّد والنفي والاستعمار. اعتمد هذا المقال حسب المنهج الوصفي—التحليلي على دراسة أبعاد دلاليّة للقهوة ومتعلقاتها التي تمثّل مدى تعايش درويش بهذا الموروث الشعبي ضمن الوقوف على عينيّات من الشاعر.

أوحت نتائج الدراسة إلى أنّ القهوة تقع جسراً رابطاً للتفاعل بين درويش وبين نبض الشعب وروحه وكيانه وتنبع دلالاتها عن مدى تعلّق الشاعر بالماضي، والحاضر والمستقبل لإحياء الهويّة العربيّة ومناهضة الاستعمار في ظلّ المقارنة حيث يجعل الشاعر، الحاضر منتمياً إلى جذوره التاريخيّة. يكشف درويش عبر القهوة عن الدلالات الوطنية، والخلجانات الرّوحيّة والحُبّ في إطار سياقها الشعري وأيضاً يبيّن أنّ توصيف المقهى في أشعاره لاينحصر على المكان الكلاسيكي لشرب القهوة بل كعنصر من عناصر النقد الاجتماعي والنفسي لاهتمام الشعب بتراثهم وهويتهم القوميّة.

الكلمات الرئيسة: الشعر العربي الحديث، الدلالات المعنويّة، القهوة العربيّة، محمود درويش.

*الكاتب المسؤول salmani_ m@yazd.ac.ir

المقدمة

تتضمّن القصيدة العربيّة الجديدة مثيراً جماليّاً إذا بُنيت على التراث والمفاهيم النوستالوجيّة التي تدلّ على شتّى دلالات تتعلّق بوجدان وانفعال وعاطفة الأديب؛ فهذه الدلالات المعنويّة تعتمد على معانى الألفاظ وتغيّرها دون صورتها الخارجيّة لأنّها تتشكل بواسطة السياق الشعري والتراكيب لكلمة أو عبارة ما في القصائد الشعريّة بما أنّها تصنع المفاهيم الرمزيّة والوجوديّة إذ يصبح معنى الكلمة ذات المفاهيم الجديدة، مستجيباً لمقاصد المؤلف كالحديث عن الثقافة، والمجتمع، والسياسة و... انطلاقاً من هذه التصورات تتعلّق قضيّة التراث بالشعر العربي الحديث عامّةً والشعر الفلسطيني خاصةً حيث «يكترث الشعراء الفلسطينيون بالاكتشاف الماضي في ضوء التفاعل مع تجليّات الحاضر، فإنّهم لم يكونوا سارداً للتاريخ أو معبّرة عن فكرة آنيّة بل يتعرّضون ضمن التراث للقضايا الحديثة كالحريّة والرفض والحداثة» (نمر موسى، ٢٠٠١: ٧).

بناءً على هذه القضايا أنّ أشكال توظيف التراث الشعبي كالقهوة ومتعلقاتها تبرز بوضوح في شعر درويش حيث يتعايش الشاعر مع القهوة، والمقهى، ورائحة القهوة، والقهوة الصباحيّة والمسائيّة لإظهار تعلّقه بالماضي، والحاضر، والمستقبل؛ فهو يجعل هذا المشروب الأسود في قصائده الشعريّة تعبيراً عن الرّوح الوطنيّة وتفصيلات حياته بكلّ ما فيها من أحداثٍ كألم وغربة واضطهاد فرضها الاحتلال الصهيوني، بعبارة أخرى يستكن الشاعر من خلال القهوة وسياقها ودلالتها اللغويّة علاقته بالواقع المعيش مفعماً بالاغتراب والعزلة والابتعاد عن الوطن، فإنّه يستفيد من هذه القضايا حسيّاً ثم ينقلها فنيّاً عبر المقارنة بين الأوضاع الماضيّة والحاضرة للإنسان العربي.

أدّى حضور الشعراء في المقاهي إلى توظيف القهوة توظيفاً فنيّاً حيث تتّفق مع التجربة الشعوريّة التي تتماشى مع الأديب في توصيف ذكرياته الماضيّة وأزماته العاطفيّة وتبيّن فكرته القوميّة وضغوطاته السياسيّة، لأنّها تشتغل في جانب القهوة حيّزاً وافراً في سبيل التيّارات السياسيّة حيث «أصبحت منبراً للحوارات وتبادل الآراء بين الأدباء والنقّاد والمبدعين والفنّانين» (فيطس، ١٤٣٧: ١٦٠). فلذا أنّ درويش يبحث في المقهى عن تاريخه وهويته وذاته، ويتعايش مع مكان شرب القهوة ويصف حضوره فيه للإشارة إلى مدى غربته وتمزقاته والبعد عن وطنه فلسطين.

يضفي درويش أشكالاً دلاليّة على القهوة إذ يخرجها من دلالتها الكلاسيكيّة والمعجميّة إلى

الدلالة اللغويّة حيث تشير إلى تعلّق الشاعر بالمجتمع والقضايا القوميّة ومناهضة الاستعمار وأيضاً نفسيته المشحونة بالتمزقات الروحيّة والاضطرابات النفسيّة، فإنّ القهوة وسياقها الشعري لامتياز عند الشاعر بالنظرة السطحيّة الروتينيّة التي يشعر بها الإنسان العادي بل تصبح وسيلة للتعبير عن الهويّة القوميّة والمقاومة والدفاع عن الوطن. مِن هُنا لابُدّ من القول أنّ القهوة ومتعلقاتها تطلق مظهراً من مظاهر توظيف التراث في سبيل يقظة الشعب العربي وإعادة هويتهم الزائلة حيث انتقلت من كونها مشروباً عادياً إلى المادّة الثريّة التي تحمل الدلالات الوجدانيّة والخلجانات النفسيّة والحُبّ من خلال تطوّرها اللغوي وحقولها الدلاليّة في داخل النص الشعري، إذ يعطيها درويش إحدى الطرق الجديدة لنقد المجتمع العربي حيث يجسّد عبرها صورة الوطن مع صورته الرّوحيّة وقد تأثّرت بأحداث المجتمع العربي بما فيه من فقدان روح الكفاح والحريّة، فلذا أنّ توظيف القهوة وبنيتها الشعريّة وتكرارها في شعر درويش يختلف عن الشعراء الآخرين حيث تتشكل في صور إنسانيّة وأبعاد دلاليّة تدلّ على مدى اهتمام الشاعر بهذا الموروث الشعبي.

أسئلة البحث

تهدف هذه الدراسة بعد الاستقصاء والتفحّص في الدواوين الشعريّة لمحمود درويش إلى الإجابة عن الأسئلة الآتيّة:

- □ كيف يتعايش درويش مع القهوة العربيّة في قصائده الشعريّة؟
- □ ما هي أهمّ دلالات القهوة ومتعلقاتها في شعر درويش؟
- □ ما هي أهمّ التجليّات الدلاليّة بين المقهى والوطن الفلسطيني في شعر درويش؟

خلفيّة البحث

تطرّقت الدراسات المختلفة لنشوء القهوة والمقاهي في المجتمع العربي وتفرّغت لدور المقاهى في إحداث أنواع الثقافات العامّة والفلكلوريّة، فقد تمّ العثور على بعض الكتب والمقالات التي تفرّغت لنشوء القهوة وأبعادها الثقافيّة والاجتماعيّة في المجتمع العربي فهي:

□ أحمد ابراهيم، ناصر (٢٠١٤) في «آداب وطقوس شرب القهوة في القاهرة العثمانيّة» يشير إلى الوظائف والدلالات الرمزيّة للقهوة في العصر العثماني حيث أنّ القهوة تعرف في هذه الدراسة بوصف

عناصر الوجاهة والتمايز الطبقي وتكشف عن مظاهر الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة في تلك العصور.

□ الأرناؤوط، محمّد (٢٠١٢) في مقالة «من التاريخ الثقافي للقهوة و المقاهي» عالج التاريخ الثقافي للقهوة في البلاد العربيّة خاصةً الحجاز، واليمن، ومصر، والشام وتمتدّ دراسته إلى البحث عن أهمّ رسائل كتبت بالعربيّة حول القهوة وأحكامها الفقهيّة للإشارة إلى مدح القهوة وذمّها وأيضاً ميزات المقاهي وأهميتها البالغة في تطوّر أنواع الأدب الشعبي.

□ الشهاوي، صلاح عبد الستار محمّد (٢٠١٠) في «القهوة في الثقافة العربيّة والشعبيّة» يبادر إلى تحليل التاريخ الثقافي للقهوة في البلاد العربيّة ويستند الباحث إلى الشواهد اللغويّة والأدبيّة التي تدلّ على عمق وتجذّر القهوة في الحياة اليوميّة العربيّة طوال العصور المختلفة.

□ صبيحات، أحمد (٢٠١٠) في مقالة «تأثير المقاهي العربيّة على نشأة الصالونات الأدبيّة والتحريض على الثورة الفرنسيّة» حاول أن يكشف عن الأصول التي تطلق على أسماء المقاهي في البلاد العربيّة وأيضاً بيّن مكانة المقاهي في نشأة الصالونات الأدبيّة التي تلعب دوراً هاماً في إحداث التيّارات الفكريّة في أوروبا خاصةً الثورة الفرنسيّة.

□ شميس، عبد المنعم (١٩٩١) في «قهاوي الأدب والفن في القاهرة» يبحث عن دور المقاهي في إحداث التيّارات الأدبيّة والفنيّة في القاهرة حيث تعتمد هذه الدراسة على المظاهر الفنيّة والأدبيّة في المقاهي كظهور الموسيقا والغناء والملاحم الشعبيّة.

□ الكردي المكي، محمّد طاهر بن عبد القادر (١٩٨٤) في «أديبات الشاي، القهوة والدخان» يعالج تاريخ المقاهي في البلاد العربيّة ويأتي بالأبيات الشعريّة التي تدلّ على حرمة القهوة وطريقة شربها في العهد العثماني.

□ القاسمي الدمشقي، جمال الدين (د. ت) في «رسالة في الشاي والقهوة والدخان» يشير في الفصل الثاني إلى ميزات القهوة وخصائصها الفيزيولوجيّة في جسم الإنسان ثمّ يتطرّق الباحث للتغيير المعنوي لكلمة القهوة في غضون الدولة العثمانيّة ويستند إلى أهمّ القصائد التي تصف آراء المتصوفة والفقهاء حول القهوة من حيث مدحها وذمّها.

□ رجب، ريم (د. ت) في مقالتها «عن القهوة، عند محمود درويش» اهتمّت بذكر النصوص التي تدلّ على العلاقة الحميمة بين درويش والقهوة دون أن تتناول دلالاتها وسياقها الشعري في أشعار الشاعر.

الدراسات السابقة قد تفرّغت لمكانة القهوة والمقهى في المجتمع دون أن تدرس دلالات القهوة ومفاهيمها ونزعاتها النفسيّة، والرمزيّة والوجدانيّة في شعر شاعر معيّن خاصةً درويش فإنّنا في هذه الدراسة نقوم بدراسات دلاليّة للقهوة ومتعلقاتها كالمقهى بغية الكشف عن أهمّ دلالاتها اللغويّة في قصائد الشاعر.

الإطار النظري للبحث

يعدّ "محمود درويش" من أبرز الشعراء العرب المعاصرين في توظيف الموروث الشعبي عامةً والقهوة العربيّة خاصةً؛ فالقهوة تتجلّى في قصائد الشاعر عبر دلالاتها اللغويّة وفي هذا الصدد أنّ «علم الدلالة (Semantics) يبحث عن معنى معيّن للكلمة يوحي به سياق لغوي واجتماعي وبيئة جغرافيّة وفترة تاريخيّة معيّنة» (نهر، ٢٠٠٨: ٢٦). فإنّ علم الدلالة يرتبط بالسياق الداخلي لكلمة ما في القصيدة إذ إنّ السياق يحكي عن المعنى المقصود للكلمة وخروجها عن دلالتها المعجميّة من حيث استخدامها في السياقات المختلفة وتحوّلها عن معناها المألوف على أساس الحقل الدلالي وقد يتوجّه إلى دراسة المعنى مرتكزاً «على الدلالة اللفظيّة المترابطة بالألفاظ الأخرى داخل نسق دلالي محكم حيث تتجسّد دلالة الكلمة بواسطة ألفاظ تأتي قبلها وبعدها» (عزوز، ٢٠٠٢: ٤٧و٤٦). نرى الوجه البارز من دلالة القهوة اللغويّة في سياق النص بألفاظ كالجغرافيا، والغربة، والوحدة، والغروب، والدم، والاغتراب الحجري، والأمّ، والصباح والمساء حيث تكشف عن المعاني الرمزيّة والوجوديّة والنفسيّة عند درويش ومدى تعايشه مع هذا الموروث الشعبي في المقارنة بين الماضي العربي وأوضاعهم الراهنة.

الدراسة الدلاليّة لهذا البحث كشفت عن الظواهر اللغويّة للقهوة ومتعلقاتها على أساس تحليل قصائد الشاعر من خلال المستوى الدلالي وسياقها اللغوي داخل النصّ، فلذا قدّم درويش للقهوة معنى جديداً على حسب تخصيص دلالتها وموضعها في الجملة للإشارة إلى مسايرتها في نقد القضايا المعاصرة وما تعرّض له الشعب العربي والفلسطيني من فقدان الاهتمام بالتراث والقوميّة والوطن. يسمّي درويش عناوين بعض أشعاره كـ "سرحان يشرب القهوة في الكافيتريا"، و"كمقهى صغير هو الحُبّ" باسم القهوة ومتعلقاتها بما فيها من الدلالات الوجدانيّة والهويّة الذاتيّة وإعادة روح النقد في المجتمع العربي. من هذا المنطلق يسعى هذا المقال عبر المنهج الوصفي – التحليلي لإيضاح العلاقة بين الشاعر والتراث الشعبي المتجسّد بالقهوة وأيضاً الكشف عن مظاهر توظيفها عبر الدلالة اللغويّة ونسقها في داخل النصّ.

محمود درويش والقهوة العربيّة

تشمل القهوة أبعاد لغويّة تحمل معاني مختلفة وذكرت في كتب المعاجم اللغويّة، فلفظ القهوة حسب ما جاء في "المعجم الوسيط" «مأخوذ من قها – أقهى كـ "أقهى فلان" بمعنى دام على شرب القهوة وأقهى فلان عن الطعام بمعنى امتنع منه ولم يرده» (مصطفى وآخرون، ١٩٨٩: ١٦٣٣). سمّي الخمر، القهوة لأنّه يقهي شاربه عن الطعام أي يذهب شهوته، «تطوّر معنى القهوة للسبب التاريخي فهذا يعني أنّ إطلاق لفظ القهوة على البُنّ مجازاً قد نشأ بعد حصول الربط المعنوي بين تأثير البنّ ومعنى القهوة القديمة عبر الفترة التاريخيّة الطويلة» (راجع: خوّاض وعثمان، ٢٠١٥: ١٧). تغيّرت مفاهيم وأغراض القهوة في العهد العثماني وأصبحت بمعنى الكافي أو شراب البنّ حيث دخلت في مضمار الجدل الفقهي وأدّت هذه المناقشات إلى إظهار أوصاف القهوة في شعر المتصوفة والفقهاء بما إنّها تضمّنت «بالمساجلات الشعريّة وقد يحلّل شرب القهوة فئةٍ ويمدحها وفئة أخرى يحرّمها ويحمل عليها» (الأرناؤوط، ٢٠١٢: ١٠).

يحاول درويش استيعاب القهوة والمقهى إلى الجهة الديمقراطيّة ونقد المجتمع في العصر الحديث، فاللافت أنّ المقاهي تواكب الصحف والجمعيات الوطنيّة لتيقّظ النّاس وصحوتهم وتشكيل التيّارات الفكريّة والسياسيّة وفي الجهة الأخرى أنّ القهوة ومتعلقاتها تلعب بوصفها تراثاً شعبياً، دوراً بارزاً في الشعر العربي الحديث عامّةً وشعر درويش خاصةً فهو يتعامل مع القهوة والمقهى لأنّ المقاهي تعتبر إحدى العناصر الثقافيّة التي تحمل الدلالات الرمزيّة والاعتباريّة وتعبّر عن عناصر الوجاهة والتمايز الطبقي في العهد العثماني وتكشف الستار عن فكرة الشاعر تجاه الوطن وهويته وذاته في العصر الحديث. تُعتبَر المقاهي في شعر درويش شكلاً من أشكال تعايشه مع المجتمع حيث اختزلت كثيراً من الدلالات والرموز بما أنّها «تعتبر واحداً من المراكز الأساسيّة لتطوّر روح النقد والتنافس الفكري حتى عرفت المقاهي بـ"مدرسة الحكمة" لأهميتها البالغة في تطوّر التيّارات الأدبيّة والاجتماعيّة حيث يقال إنّ المقهى طوّر روح النقد في العصر الحديث» (صبيحات، ٢٠١٠: ٤٩٣). فالملاحظ أنّ المقهى لم يعد مكاناً للبقاء وإزجاء وقت الفراغ بل تطوّر دوره الكلاسيكي في شعر درويش وأصبح عنصراً من عناصر البنية الحضاريّة حيث لا يتجزأ من ذات الشاعر ونفسيّته وطموحاته وقد يكون شرحاً لأحواله فمن خلاله يوجّه الشاعر رسالةً إلى الآخرين عن المأساة الفلسطينيّة كالتشرّد والابتعاد عن الوطن والمنفى والسبي.

إنّ درويش يوظّف القهوة بوصفها المادّة الخصبة في تبيين التراث ونقد المجتمع الحديث حيث صارت القهوة ملازمةً لكلّ التحوّلات التي يعيش فيها الشاعر بالتأثّر والتأثير وتحتلّ دلالتها المساحات الواسعة في

توصيف الأحوال الشخصيّة وخلجاناته النفسيّة كالوحدة والعزلة بما أنّها تحصى «كوسيلة إيجابية ليست فقط في تنشيط التفكير والحالات الفيزيولوجيّة عند الإنسان بل تقوم بدور فعّال في عمليّة التواصل الاجتماعي والأبعاد النفسيّة في المجتمع العربي» (الشهاوي، ٢٠١٠: ٧٦). بناءً على هذا أنّ الشاعر يجعل القهوة بمثابة المادّة الشعريّة التي تتحدث عن الوطن والاستعمار ونفسانيته وقد ترتبط بمفاهيم وتيّارات لم تنفصل عن قضيّة التطوّر الاجتماعي بما فيها الحريّة والمناهضة وتثبيت الهويّة الذاتيّة. أصبحت القهوة عند درويش ذات وظيفة إنسانيّة وقد وظّفها في داخل النص الشعري لتمثيل مظاهر الحياة وتكريس الأصالة والهويّة العربيّة لأنّها تعدّت عند الشاعر من الملامح الرّوتينيّة والسطحيّة إلى دلالات تدلّ على علاقة الشاعر بالمجتمع والوطن والشعب.

القهوة ودلالاتها في شعر محمود درويش

شكلت القهوة ضمن السياق الشعري الذي ترد فيه دلالة لغويّة هامّة في تشكيلها الإيحائي لدى درويش، فهو يجعل القهوة تتعلّق بالقضايا الواقعيّة والنفسانيّة لأنّه يهتمّ اهتماماً بالغاً «بتوظيف التراث وعناصره كالتراث الديني والشعبي والقومي لأنّ التراث أسهم سهماً بارزاً في الحفاظ على انتماء الشعب لتاريخه وهويته» (الرّبيحات، ٢٠٠٦: ٧٢). تلعب القهوة ومتعلقاتها كرائحة القهوة، والمقهى، والقهوة الصباحيّة والمسائيّة دوراً بارزاً لتشكيل الصورة التعبيريّة والموحية وإظهار العلاقة الثنائيّة بين الشاعر والأرض حيث أنّ الشاعر يوظّف القهوة عبر المصاحبة اللفظيّة مع كلمات كالمساء والصباح واليد والجغرافيا والأمّ فالمصاحبة اللفظيّة «تعطي الكلمة دلالات متعددة تعرف تضامّها وتصاحبها مع كلمات أخرى في تحديد دلالتها والوصول إلى الغرض المقصود» (ميرزاي الحسيني والآخرون، ٢٠١٧: ٨٤). فالواضح أنّ القهوة تنطوي على جانب من العناصر الثقافة العربيّة والشعبيّة التي تحتوي على جوانب التراث في شعر الشاعر حيث تمثّل مدى تعلّقه بالماضي والحال والمستقبل وتعدّ كالبنية الأساسيّة التي يتعايش معها الشاعر للبحث عن ذاته وهويته المفقودة.

تمتاز القهوة في شعر "درويش" بنقد قضايا المجتمع وأحواله الرّوحيّة حيث يختارها الشاعر في عناوين دواوينه وقصائده كـ «"مقهى صغيرٌ هو الحُبّ" و"سَرحانُ يَشرُبُ القَهوةَ في الكافيتيريا" و"إلى أمي" التي قد جمعت بين روح الحكاية الشعبية وروح القصّ والبناء الملحمي والحُبّ والانبعاث والتجدّد للشهداء» (راجع: درويش، ١٩٩٤: ٩٨و١٣٣). وظّف درويش القهوة في مضمار مفاهيم المقاومة والكفاح كأنّه لا

يبالي بالقهوة إلّا مطالباً بتجديد الذكريات الماضية وباحثاً عن هويته المفقودة في الأرض المغتصبة؛ فأمّا هذه المادّة الشعريّة فتختصّ بدلالات لغويّة ضمن سياقها الشعري فيما يلي:

أ) الدلالة على الوطن

يتعرّض درويش لمفاهيم الوطن عبر القهوة فهو ينقد إزالة روح المناهضة والمقاومة بين الشعب العربي ويردّ على اضطهاد واغتصاب العدوّ الصهيوني في وطنه؛ فليس الوطن عند الشاعر إلّا إحياء الذكريات الماضيّة والهويّة الفلسطينية؛ فهو يشير في قصيدة "سرحان يشرب القهوة بالكافيتريا" إلى دلالة القهوة العربيّة بمثابة الجغرافيا الوطنيّة الفلسطينيّة بأرضه، وسمائه، وأناسه وأمطاره كقوله:

رائحةُ البنِّ جغرافيا
رائحةُ البنِّ يَد
رائحةُ البنِّ صَوتٌ يُنادِي.... ويَأخُذُ
رائِحةُ البنِّ صَوتٌ ومئذنةٌ (ذاتُ يومٍ تَعُودُ)
رائِحةُ البنِّ ناي تُزغرِدُ فيه مِياهُ المزاريبِ

(درويش، ٢٠٠٥: ١٠٢)

سرحان شاب فلسطيني الأصل اغتال "روبرت كنيدي" مرشّح الرئاسة الإمريكيّة والإسرائيليّة عام ١٩٦٨م لاستهانته بالقهوة العربيّة حينما صرّح لليهود قائلاً: «دعوني قبل أن أحدّثكم لغسل فمي، لأنّني شربت قهوةً عربيةَ قبل قليلٍ. فعندما أطلق سرحان النار عليه صرخ قائلاً: فَعَلتُ هذا من أجل بلدي وأصالتي وهويتي» (أبو إصبع، ١٩٤٨: ٥١). لقد عبّر درويش عن انتماءه إلى وطنه وموروثه الشعبي بواسطة عبارة رائحة البنّ التي كرّرها سبع مرّات في هذه القصيدة، فيربطها الشاعر بالجغرافيا، واليد والصوت ومدى اشتياقه وتعصبه إلى وطنه فلسطين. يعتمد تكرار "رائحة البنّ" على الحالة النفسية المتأزمّة التي يعيشها الشاعر ويؤكد على مشاعر الألم والأسى عند درويش حيث يقال «أنّ الأنماط التكرارية تتمحور في قصيدة درويش لتقدّم مجموعة دلالات وإيحاءات تستند إلى إسقاطات ذهنية ونفسية واجتماعية لدى الشاعر» (أبو العدوس، ٢٠٠٧: ٢٣٣).

تعتمد البنية اللغويّة للقهوة في هذا النص على الأشكال الترميزيّة بما فيها من مفاهيم الغربة، والسبي والابتعاد حيث أنّ الشاعر يناهض الذين اغتصبوا أرضه وهويته فإنّه لايفكّ بين أرض الوطن والقهوة العربيّة كأنّ القهوة ورائحتها تحيي هويته وأمّه وموطنه واللحظات التي عاشها بالسلوان والرّاحة. يبدو أنّ

الصور الواقعيّة في ترسيم القهوة والصاقها بكلمات كالجغرافيا، واليد والصوت والناي تحيي عند الشاعر دلالات ضمن حدود الوطن بأرضه وسمائه وأناسه وأمطاره بواسطة التجربة الحسيّة والواقعيّة حيث تتحوّل القهوة من مشروب الضيافة العربيّة إلى الدلالة الوجوديّة التي ارتبطت بالحياة السياسيّة والاجتماعيّة للشاعر على أساس تعلّقه بهذا المشروب ومدى استلهامه منه؛ فلذا أنّ رائحة القهوة اقترنت عند الشاعر«بحمولة دلالية كبيرة، فهي من جهة لغة تخاطب بين الشاعر وأرضه، ومن جهة أخرى لغة تخاطب بين الشاعر وطفولته» (علي زروقي، ٢٠١٢: ١١٩). يستمرّ الشاعر في هذه القصيدة ويصف سرحان وأحواله حيث لا مصير له إلّا التضحيّة في سبيل الوطن وإعادة هويته وذاته كقوله:

لكنّ سرحانَ قَطرُةُ دمٍ تفتّشُ عن جُثّةٍ..... نَسِيتها وأينَ؟
ولَستُ شَريداً..... ولَستُ شَهيداً
ورائِحةُ البنِّ جُغرافِيا
وسِرحانُ يَشربُ قَهوتَه..... ويَضِيعُ

(درويش، ٢٠٠٥: ١٠٣)

يقرّر سرحان قتل كنيدي فهو ليس شهيداً ومتشرداً بل يعتبر بمثابة الإنسان المنتقم والمناهض الذي يدافع عن أرضه، ثمّ يذكر الشاعر شرب القهوة عند سرحان ومدى علاقته بها؛ كأنّها الجغرافيا الوطنيّة تضيّع سرحان في عالمه الداخلي وعالمه الخارجي حيث يبدّد سرحان كلّ حياته للحفاظ عليها (القهوة) لأنّها تطلق الموروث الشعبي للعرب وكيانه وهويته الدائمة.

يستوقف المتأمل في توظيف القهوة ومتعلقاتها في هذه النصوص بالنزعات الأدبيّة وقد يرسم الشاعر بواسطتها تجربته الشعوريّة والواقعيّة في ظلّ مظاهر الكون، والذات، والواقع؛ وقد يشير "كريم الطيبي"كاتب مغربي في صحيفة القدس العربي إلى الأبعاد الوجوديّة للقهوة التي ارتبطت بكينونة الشاعر، فإنّ الشاعر يبادل مشاعره ومحبته وكيانه بالقهوة وعوّض بها الفراغ العاطفي الذي نخر نفسيته الممزّقة والمتشظيّة بها. بناءً على هذا البعد أنّ «النزعة الوجوديّة تنطوي على الالتزام والحريّة والإرادة والقدرة على تحديد المصير» (بايزيدى وآخرون، ٢٠١٥: ١٤). فقد جسّدت القهوة روح الالتزام والتشبّث بالأرض، والوطن، والجغرافيا فهذا ما جعل الشاعر يرنو إليها لبناء الوطن الفلسطيني، وبمثابة المحرّض الحقيقي لدعوة شعبه إلى الكفاح والصراع وأيضاً تشتمل القهوة في هذه النصوص على "النزعة الرمزيّة" حيث يحرزها درويش بواسطة خروجها من المعنى المألوف (الشراب الأسود) إلى المفاهيم الرمزيّة كالوطن، وإعادة التراث، وتكريس الهويّة

عبر حقولها الدلاليّة في داخل النصّ. تتجاوز دلالة القهوة عند درويش من الدلالة الروتينيّة بمعنى الكرم والضيافة «إلى الدلالة الإيحائيّة في بعض أشعار الشاعر وتكتسب أبعاداً موضوعيّة، حيث أنّه لا ينظر إلى القهوة على أنّها المشروب العربي فحسب بل تراه امتداداً للكيانه وشخصيته وحلقة الوصل بين الماضي والحاضر والمستقبل فيحاول أن يجسّد الصفة القوميّة والوطنيّة العربيّة مع ما كلّ ما ورثه من طقوسات وسلوكيات القهوة» (نمر موسى، ٢٠٠١: ٩١).

تعتمد النزعة الرّمزيّة على بنية التكرار، فتكرار لفظ القهوة ينتشر بين ثنايا القصيدة للدلالة على تعلّق الشاعر بأرضه ووطنه وذكرياته الماضيّة الحلوة، فالشاعر لا يستخدم القهوة بمثابة الشيء المادي المنفصل عن ذاته بل يراها امتداداً لوجوده وكيانه ونفسيته ويقع هذا الموروث الشعبي للإشارة إلى المعاني الكامنة التي ترتبط بالقضايا الراهنة لوطنه فلسطين كالاغتصاب والتشرّد والمنفى.

وفي قصيدة "سنونو التتار" من ديوان "لماذا تركت الحصان وحيداً" يخاطب الشاعر أمنياته التي تحكي رائحة القهوة العربيّة وهي ليست إلّا الذكريات الماضيّة التي انقضت في الوطن:

لَنا حلمٌ واحدٌ: أن يمرَّ الهَواء
صديقاً، وينشرُ رائحة القهوة العربيّة

(درويش، ٢٠٠٥: ١٤٨)

تحمل القهوة جزءاً من التاريخ الفلسطيني، والإشارة إليها تقوم على أصالة وهويّة الشعب الفلسطيني في الدفاع عن الوطن؛ حيث أنّ الشاعر «يستمر إغراق مشاعره وأحزانه في أجواء القهوة، حتى تصبح القهوة هي الجغرافيا وهي اليد المناضلة وهي الصوت الذي ينادي بالعودة إلى الوطن» (علي زروقي، ٢٠١٢: ١٣٢). يتحدّث الشاعر عن القهوة الصباحيّة ومدى تأثيرها في النفوس للدلالة على وطنه وهو مكتظّ بالفرح؛ فيقول في قصيدة "نزل على البحر" من ديوان "هي أغنية":

ونُريدُ أن نَحيا قَليلاً، لا لِشيءٍ
بَل لِنرحَلَ مِن جَديدٍ
لا لِشيءٍ من أَسلافِنا فِينا ولكنَّا نُريدُ
بِلادَ قَهوتِنا الصَّباحيّةِ
ونُريدُ رائِحةَ النَباتاتِ البَدائيّةِ

(درويش، ٢٠٠٥: ٦٧٨).

يكترث الشاعر عبر الحقل الدلالي "شرب القهوة في الصباح في بلاده، ورائحة نباتات فلسطين"، بتاريخ بلده ويصف الإنسان الفلسطيني الذي يسعى للوصول إلى تجديد الذكريات الماضيّة والغور في أيام راحته وسلوانه، فلهذا يجد الشاعر علاقة وثيقة بين أيّام رغده في وطنه فلسطين وفعل القهوة الصباحيّة في جسم الإنسان من الحركة والسلوان، فالواضح أنّ الشاعر عبر دلالة "القهوة الصباحيّة" و"النباتات الفلسطينيّة" يتطرّق لنشوء روح الحميّة بين الشعب العربي والفلسطيني، مع أنّ هويتهم وذاتهم قد وطأت بواسطة الاحتلال الصهيوني لكنّه يحلم بالعودة إلى الماضي منتمياً إلى التاريخ الفلسطيني.

في مكان آخر يشير درويش بواسطة القهوة إلى المفارقة اللفظيّة «تنشأ من اللعب في المتناقضات إذ يشير الشاعر في القصيدة "جندي يحلم بالزنابق البيضاء" إلى ثمة إشاريّة في لفظ "الزنابق البيضاء" و"القهوة" إذ كان يحلم "جندي محتلّ صهيوني" بالزنابق البيضاء فهي رمز السلام والقهوة التي تعتبر رمزاً للهويّة والقوميّة العربيّة» (بن صالح، ٢٠١٦: ٦٥-٦٦). فهنا يكترث درويش بمفهوم الوطن عند هذا الجندي اليهودي كقوله:

... يفهمُ -قالَ لي- أنَّ الوطنَ
أن أحتَسِيَ قَهوَةَ أُمّي
أن أَعُودَ في المساءِ

(درويش، ١٩٩٤: ١٩٥).

يتحدّث الشاعر عن أوصاف الجندي الإسرائيلي الذي يحلم بحديقة من الزنابق البيضاء وأيضاً رؤية أمّه وشرب قهوتها لكنّها في واقع الأمر هي آلة في الجيش الإسرائيلي لدمار الشعب الفلسطيني. يستفيد الشاعر من المفارقة اللفظيّة في توظيف كلمة القهوة حيث أنّ الجندي الإسرائيلي يشرب القهوة العربيّة ويحلم بوطنه الذي لا يحسّه ولا يعرفه بجلده ونبضه وفي الحقيقة يبادر الشاعر إلى التراث الشعبي العربي والمساعي الصهيونيّة لإزالة معالمهم التاريخيّة من فلسطين وأيضا تعلّق القهوة العربيّة بالعرب دون الصهاينة.

يعدّ المقهى في جانب القهوة من الأماكن التي اهتمّ بها الشّاعر حيث يبحث فيه عن ماضيه، وحاضره، ومستقبله وذكرياته المفقودة، وتاريخه، ومشاعره الذاتية والوطنية والحرية، فالجدير أنّ الشاعر يصف المقهى لبثّ رؤيته وتعبيره عن الواقع فغيّر فضاءه التراثي وقد كان «مكاناً لتصريف الفراغ ومن إمداد الفرد لمواجهة رتابة الحياة اليوميّة» (صبيحات، ٢٠١٠: ٤٩٠). إلى توصيف مظاهر الوطن وأحداثه كالحرب والغربة والمنفى فهنا نرى وجهه البارز في قصيدة "أغلقوا المشهد شهادة من برتولت بريخت أمام

محكمة عسكرية" من فضاء المقهى وقد خيّمت عليه المظاهر المتناقضة كقوله:

سَيِّدِي القاضِي
أَنا لَستُ بِجُندِيٍ
فَماذا تَطلُبونَ الآنَ مِنّي؟
أنا لا شَأنَ لي في ما تَقُولُ المحكمةُ
ذَهَبت الماضِي إلى الماضِي سريعاً
دُونَ أن يَسمعَ منّي كلمةً
مَضَت الحَربُ إلى المقهى لِتَرتاحَ

(درويش، ١٩٩٤: ٢٣٧).

ينقضي الزمان بسرعة في سياق القصيدة حينما يذكر الشاعر القهوة أو المقهى فيرد المقهى بالمعنى السلبي على شكل المفارقة الفنيّة حيث يقول: «مضت الحرب إلى المقهى لترتاح... » و"المقهى" هنا مكان للحرب فلا يوظّفه الشاعر بواسطة لفظ "لترتاح" للمعنى المألوف بل يستعمله للدلالة على خيبة أمله ويأسه ممّا آلت اليه الأوضاع في وطنه من القتل والدمار. فالواضح أنّ المقهى في هذه النصوص ليس مكاناً للفرح وانقضاء الأيّام كما ورد في الكتب التاريخيّة، بل يجعله الشاعر مكاناً للغرباء الذين مزقت شملهم الحرب والغربة والظلم؛ كما يبرز ذلك بوضوح في حركة الحرب إلى المقهى وإزالة السلوان والفرح منه، وأيضاً يشير الشاعر إلى أنّ المقهى صار كالمنفى ومكاناً لسبي اللشعب الفلسطيني كقوله في قصيدة "كان ينقصنا حاضر":

و مَقهَى مَواعِيدُنا.... كُلُّها كُلُّها
تَسعَدُ لِتُصبحَ مَنفى إذا
فَلنَكن طَيِبين!

(درويش، ١٩٩٤: ٢٥٦).

هناك مفارقة دلاليّة في توظيف المقهى عند الشاعر حيث يكترث الشاعر بالمعنى القديم للمقهى وقد يجتمع فيه أهل الأدب والمثقفين والعشّاق ولكن الآن صار مكاناً للمنفى والسبي مشيراً إلى أنّ أصحاب السياسة والأدب ليس لديهم الحريّة بل يعيشون في عزلة عن المجتمع. يُستنتج من خلال هذه المفاهيم أنّ دلالة توظيف القهوة ومتعلقاتها كانتشار رائحتها والقهوة الصباحيّة والمسائيّة عند درويش تمثّل أحداث

وطنه فلسطين وقد فرضها العدوّ الصهيوني، فإنّ الشاعر يستخدم القهوة في ضمن الحقل الدلالي في النصّ الشعري حيث يربطها بكلمات كاليد، والصوت، والجغرافيا العربيّة لإحياء هويته العربيّة في فلسطين، وكذلك فالمقهى ليس عند الشاعر إلّا تجسيم المأساة الفلسطينيّة كالتشرد والحرب والنفي مسايراً دلالته بنوع من المفارقة اللفظيّة حيث تحوّل من معناه المألوف كالفرح والسلوان، إلى مكان يتحدّث النّاس فيه عن ضياعهم ويأسهم إثر الحرب والاحتلال.

ب) الدلالة على الخلجانات النفسيّة

إرتبطت القهوة عند "محمود درويش" بالعزلة والوحدة والاغتراب عن المجتمع فلا شكّ أنّ هذه المعاني تتناسب مع الصفات النفسيّة والرّوحيّة التي نشأت إثر الاضطرابات الوجوديّة التي واجهها الشاعر في غضون حياته، كما يشير "عز الدين إسماعيل" إلى أنّ «شعرنا المعاصر استفاضت نغمةُ الحزن فيه حتى صارت ظاهرة تلفت النظر، بل يمكن أن يقال إن الحزن قد صار محوراً أساسيّاً في معظم ما يكتب الشعراء المعاصرون من قصائد نفسيّة» (إسماعيل، د. ت: ٣٥٢). لو سبرنا في القصائد الشعريّة لمحمود درويش لوقفنا على لفظة القهوة التي تدلّ على خلجانات الشاعر التي ترتبط بوجدانه مكتظةً بالحزن والقلق والوحدة كأنّه يقول في قصيدة "أغنيّة":

حينَ أَعُودُ لِلبيتِ
وحيداً فارغاً إلّا مِن الوَحدةِ
يداي بغير أمتعةٍ وقَلبِي دُونما ورده...

(درويش، ١٩٩٤: ٣١).

وإلى أن يقول:

وحيداً أَصنَعُ القَهوةَ
وحيداً أَشرَبُ القَهوةَ
فأَحسَرُ مِن حَياتِي مِن كفاحِي

(*المصدر نفسه*: ٣١).

تُبيّن هذه القصائد مدى تعلّق الشاعر بالوحدة والاعتزال والاغتراب عن المجتمع بسبب فقدان الكفاح والمناهضة؛ ومن ثمَّ يصبح البنّ رفيق الشاعر والعقار المهدئ الذي يتمسك الشاعر به لتهميش

نفسه عن الواقع المعاش. تمتاز القهوة في هذه الأشعار بالنزعة النفسية فإنّ درويش لا يستطيع أن يبدع في تجاربه النفسيّة دون الأدب والتراث والتمزّقات الروحيّة والضغوط النفسيّة التي ترتدّ إلى ذاته، لأنّ «التحليل النفسي يشكل حيّزاً واسعاً في التراث الشعبي فهذا يشير إلى نفس المؤلف وخلجاناتها الرّوحية والنفسية في ظلّ المفاهيم الفلكوريّة وتفسير مكنوناتها وتعايشها مع المجتمع» (خموم و لوز، ٢٠١٧: ١٣٧-١٣٦). تنطوي القهوة على الاضطرابات الرّوحيّة لمحمود درويش فهو يشرب القهوة وحيداً ويجلس في البيت محزوناً بسبب فقدان روح الكفاح والتضحيّة والمناهضة في المجتمع. إنّ القهوة ودلالاتها على الخلجانات النفسيّة التي كبّلت روح الشاعر تنعكس بوضوح في هذه التعابير كـ: (وحيداً أصنع القهوة) و(وحيداً أشربها) وهي تدلّ على عزلة الشاعر ووحدته، إضافة إلى مدى تمزقاته الرّوحيّة التي تنبع من خسران الكفاح ضدّ الاستعمار والأجانب فهو يرجّح الوحدة والابتعاد عن النّاس بالحضور في المجتمع. «يشير درويش في قصيدة "كلّ ما سوف يكون" وقد أنشدها الشاعر في ذكرى الشاعر الفلسطيني "راشد حسين"إلى حياته اليوميّة التي لا يشاهد فيها التنوّع والسّلوان فهو يتردّد بين المقاهي للبحث عن الرّاحة والسلوان فيستخدم الشاعر تقنيّة الحوار التي يعتمدها لاستنطاق حياة المنفى وتمزقاته الوجوديّة بين الهنا والهناك» (راجع: بوحجر، ٢٠١٨: ١٨٥). كأنّه لا يرى من الحياة إلّا الصفات السلبيّة كالتخلّف والهموم من أجل الابتعاد عن التراث كقوله:

ومن المقهى إلى المقهى. أُريدُ اللغةَ الأُخرى
أُريدُ الفرقَ بين النّارِ والذّكرى

(درويش، ١٩٩٤: ٦٠٢).

يتحدّث الشاعر في موضع آخر عن أفكاره التي تتّصف بالتشاؤم والسلبيات عبر كلمة القهوة ويصل في النهاية إلى الاغتراب والحسرة على الأصالة والهويّة العربيّة إذ وطأت في الحاضر كقوله:

لم يَشربِ من القَهوةِ إلّا لونَها
لم يَرَ المصريَّ في مِصرَ...
ثم نَادَاهُ السؤالُ الأَبَديُّ الاغترابُ الحَجَريّ

(درويش، ١٩٩٤: ٦٠٢).

فالملاحظ في هذه النصوص يجد أنّ استخدام تقنيّة الحوار من جانب الشاعر تدلّ على مدى التمزّقات الوجوديّة والرّوحيّة في وجدانه، فيتردّد الشاعر في المقهى لتجريب الرؤية الجديدة والتسلّي من

آلامه الرّوحيّة فعندما يذكر الشاعر لفظ القهوة واصفاً لونها الأسود يشير حينها إلى مرضه الرّوحي كالاغتراب عن المجتمع عبر القهوة. يصف الشاعر أيضاً مكنوناته النفسيّة في قصيدة "من روميات أبي فراس الحمداني" عبر الدلالة اللغويّة للقهوة حيث يقول:

زنزانَتي صُورَتِي لَم أَجِد حولَها أَحَداً
يُشارِكني قَهوَتي في الصَّباح ولا مَقعَداً
يُشارِكني عُزلَتي في المساءِ ولا مَشهَداً

(درويش، ٢٠٠٥: ٤٥٣).

تراكمت هذه الأشعار على غلبة دلالة الأبنية اللغوية عند درويش «كالنفي والثنائيات الضديّة والذاتيّة والعبارات القصيرة» (إسماعيل عمايرة، ٢٠١٥: ١٣٢). وأيضا يوجد الحقل الدلالي الحزين الغريب كالسجن، والزنزانة، والصدى والعزلة، والمساء للإشارة إلى نفسيته التي حلّت بها الوحدة والعزلة. يحصر الشاعر نفسه في سجن الجسم والروح دون رفاق رغم السنن المألوفة لشرب القهوة؛ حيث أنّ من العادة أن يجتمع الرفاق، ويشربونها بجذل وفرح؛ فالملاحظ هنا أنّ «هذه الأغاني تخرج من القلوب الجريحة التي حرقتها الغربة، ويصف في قصائده حياته في المنفى، ليس له رفيق غير شعره، وهو في المنفى بعيد عن حنان وطنه وربيع عينيه، ولكنه لايكتفي بالتعبير عن نفسه فحسب، بل يصوّر العذاب الملحق بأبناء شعبه في المنفى من الاغتراب والاحساس بضياع الهوية» (راجع: النقّاش، ١٩٧١: ٢٥-٢٣).

فالواضح أنّ القهوة تتّصف في نصوص درويش بالهروب من أحداث زمانه حيث يذكر الشاعر ذكرياته الماضية الحلوة لتحرير نفسه من واقع حياته المريرة التي لاتفهم عن الحريّة شيئاً، ويبحث من خلالها عن الخلود باستخدام شعوره الرومانسي الذي يحمل تمزقاته الرّوحيّة كالوحدة والاضطراب النفسي عبر القهوة التي تمتاز بالحياة والفرح والنشوة في الماضي والأتراح في الحاضر.

يوظّف درويش القهوة المسائيّة للإشارة إلى نفسيته حيث يصف احتساء القهوة في وقت المساء بحديقة تعكس نوستالوجيا الشاعر وفكرته الوجدانيّة المفعمة بالحزن والكآبة، فإنّ الشاعر يرسم عبر القهوة المسائيّة غربته. وها نحن نراها في قصيدة "غُرفةٌ في فندق" من ديوان "هي أغنيةٌ" يقول:

غُرفَةٌ في فُندقٍ
سَلامٌ عَلى الحُبّ يَومَ يَجيءُ
ويَومَ يَموتُ، ويَومَ يُغيّر أَصحابَه في الفَنادِقِ

هَل يَخسرُ الحُبّ شَيئاً؟ سَنَشرَبُ قَهوَتنا في مَساءِ الحَدِيقَةِ
نَروِي أَحادِيثَ غُربَتِنا في العَشاءِ
ونَمضِي إلى حُجرةٍ كي نُتابِعَ بَحثَ الغَريبين عَن لَيلةٍ مِن حَنانِ....

(درويش، ٢٠٠٥: ٣٧٦).

يرسم لنا الشاعر حزنه وكآبته بواسطة دلالات القهوة حيث يأتي بكلمات كـ"المساء" و"غربتنا" و"العشاء" و"حجرة" و"الغريبين" و"ليلة"في داخل النصّ الشعري لتوفّر الصورة التراجيدية حين يفقد الشاعر ما يحبّ من الحريّة والسلوان والفرح في هذا الفضاء المكتظّ بالهموم والوحشة، لذا واجهت القهوة والمقهى عند درويش المصاحبة اللفظيّة حيث تغيّر معناها المألوف إلى اللغة الرمزيّة مشوبةً بنوعٍ من الدلالة اللغويّة والسياق الشعري بما أنّها تجاوزت أوصافها الواقعيّة للدلالة على مكنونات الشاعر بما فيها من الوحدة والاغتراب والحزن والألم، وأيضاً تكشف دلالتها عن مظاهر الاغتراب حيث يصعب على الشاعر أن يمتزج بالنّاس من أجل أحاسيسه الممزوجة باليأس والضياع والتذمّر، فإنّها تؤدّي إلى تفضيل العزلة والتهميش عن المجتمع لتكون بديلاً عن حضوره فيه.

ج) الدلالة على الحُبّ

يبلور الشاعر العلاقة بين مفهوم الحُبّ والقهوة العربيّة، حيث أنّ الحُبّ لا يقع في ظلّ الحنين إلى الإناث بما يتجشّم الإنسان من ألم الفراق لابتعادها عنه بل يمتاز بالمفاهيم الوطنيّة والأخلاقيّة والقضايا الوجدانيّة حيث يصف الشاعر ربطه ومدى تعلّقه بالوطن والأرض الفلسطينية. يشير الشاعر إلى مفهوم الحُبّ في قصيدة"كمقهى صغير هو الحُبّ" حيث ربط الشّاعر «بين شعوره الذّاتي والأمكنة عند إقامة علاقة تشابه بين المجرد والمحسوس "الحُبّ والمقهى"، فأداة التشبيه تُوظّف بلاغيّاً لربط عالميْن متغايرين» (حامد عويضة، ٢٠١٤: ٨٧) كقوله:

كَمَقهى صَغيرٍ على شَارِعِ الغُرباءِ
هُوَ الحُبّ... يَفتحُ أَبوابَه لِلجميع
كَمَقهى يَزيدُ وَيَنقُصُ وِفْق المناخ:
إذا هَطَل المطرُ ازدَادَ رُوّادُهُ،
إذا هَطَل المطرُ ازدَادَ رُوّادُهُ،

وإذا اعتَدَلَ الجوُّ قَتَّلوا ومَلّوا

أنا ههنا ـ يا غريبةُ ـ في الرُّكنِ أجلِسُ (درويش، ٢٠٠٥: ٦٥٣).

ويرسم تحليله لنا "حامد عويضة" بشكل جميل حيث يقول:

«إنّ الشّاعر يقيم علاقة تشابه بيْن المقهى والحُبّ مُحدّداً مكان "المقهى" "على شارع الغرباء"؛ مُحدِثاً تلاحماً بيْن طرفيْ التشبيه ليثير التساؤل في المتلقي عن ماهيّة العلاقة الجامعة بينهما... وإنّ المارين لا يمكثون في رحاب المقهى سوى بُرهة زمانيّة ثمّ يغادرونه دون أن يتشبّث شيء بذاكرتهم سوى بضع لحظات خاطفة سرعان ما تتلاشى... وبما أنّ المشبّه لا بدّ أنْ يكتسب سمات المشبّه به نجد أنّ الحُبّ لدى درويش يفتقد أواصره المتينة ودفأه وقدرته على أن يبقى مغروساً في الذاكرة والوجدان، فأخذ يمرّ بلمحة عجلى... فتستوطن البرودة والجفاء والخذلان العاطفيّ القلوب، عوض التّوهّج والدفء الشّعوريّ الوجدانيّ العذب» (حامد عويضة، ٢١٠٤: ٨٧ و ٨٨).

يبدو أنّ مخاطبة الشاعر لحبيبته تنحصر في ظلّ مفاهيم الوطن، فإنّ الوطن قُيّدت خيوطُه في كلمات الشاعر بحيث لا يقدر الشاعر الانفصال عنها فعندما ينشد الشاعر الشعرَ يعتنق الوطن في حضن كلماته وجوهر ذاته وتجربته الفنيّة. يستوقف الشاعر المقهى والقهوة لترسيم مفاهيم الوطن وللإشارة إلى تشرّده مما يوجب البحث عنه في الأحلام ومما يعزّز إحساسه بالحنين والعودة إليه، وفي هذا الصدد فأنّ دلالات القهوة في مضمار الحُبّ تكترث بالأحاسيس والخلجانات النفسيّة التي تؤثّر على عبارات درويش حيث نرى «أنّ عباراته القصيرة المتقطعة توحي بقصر نفس القائل، وكأنه يسرد ببرود واقعاً جافاً بعيداً كل البعد عن التماسك والتلاحم والانسجام، وعالم أقرب إلى التفكك وعدم التآزر» (إسماعيل عمايرة، ٢٠١٥: ١٣٢).

يرجو الشاعر الحُبّ في أماكن ولحظات عابرة قد تخلو من الاستقرار والأمن والهدوء كـ "المترو، والمقهى، والبريد" فهي أماكن سفر ووداع تبرز فيها الغربة والعزلة والفرقة والوداع؛ يتضمّن الحُبّ ذكريات التراث الثقافي العربي حيث يشير محمود درويش في قصيدة "إلى أمّي" إلى اشتياقه وحبّه للقهوة بواسطة الحلم والاسترجاع أو التذكر لماضى ويوظّف تقنية التيّار الوعي حين ينفعل بما يحدث أمامه من الانفعالات عندما لا يستطيع أن يفصح عنها إلّا بواسطة القهوة؛ فهذه تدلّ على تعلّق واشتياق الشاعر إلى الموروث الثقافي كقوله:

أَحنُّ إلى خُبزِ أُمّي
وقَهوةِ أمّي ولَمسةِ أمّي
وتَكبُرُ فيَّ الطّفولةُ
يوماً عَلَى صَدرِ يَوم
وأَعشَقُ عُمرِي لأنّي إذا مُتُّ أَخجَلُ مِن دَمعِ أُمّي!

(درويش، ١٩٩٤م: ٩٣).

«يبدأ الشاعر قصيدته بالفعل المضارع (أحِنُّ) المسند إلى الضمير المتكلم، في الدلالة الإيحائيّة للمتلقي للإشارة إلى الألم الذي يعيشه والغربة والوحشة التي يعاني منها وهو بعيد عن أهله وأصحابه وذويه فالسياق الداخلي لضمير (أنا) في شعر درويش يستثير المتلقي ويستحضر كلّ عواطفه ومشاعره ليستجمعها ويشعر بما يشعر به الشاعر في رسالة منه إلى الآخر لكي يُحسَّ و يُيقن بأنّ الوطن أعزُّ ما يملكه الإنسان» (بو حجر، ٢٠١٨: ٧٧-٧٦).

إختلط حُبّ فلسطين بدم درويش وبروحه وكيانه، فإنّه لا يبحث عن الحُبّ إلّا في إطار الوطن وأحداثه، ونراه يستفيد من الأشياء المجرّدة كـ لمسة أمّي وقهوة أمي وخبز أمّي لتجديد ذكرياته الماضيّة فتقع القهوة في هذه القصيدة في جانب الأمر المحسوس كـ «لمسة أمي» فهو يدلّ على الحنان الذي يكتنف الإنسان بين أعضاء عائلته وأيضاً هويته وأصالته وإحياء حبّه المفقود وقد زال بواسطة التشريد والغربة والمنفى، لأنّ الشاعر«استوحشه الحنين والشوق إلى أرضه وآلمه الفراق ويبعده عن حبه في سبيل الوطن ولكن أنّه يمني حُلم الرجوع إلى الوطن» (بوحجر، ٢٠١٨: ٧٨).

والجدير أنّ القهوة تمتاز بوصفها إحدى وسائل التراث في شعر درويش وهي التي تتشكل عبرها أحاسيسه الوطنيّة والوجدانيّة حيث أنّ هذا المشروب الأسود يثير التساؤلات والأفكار في ذهنه فنراه لا يستفيد منه كمشروب عادي يتّصل بأوقات فراغه بل يستعمله الشاعر للدلالة الجديدة بما فيها من الحُبّ والاشتياق والحنين إلى الوطن وهويته العربيّة. فإنّ هذه الدلالة تستعمل كلفظ يتناسب مع ذات وكيان الشاعر ويصبح وسيلة يستفيد منها الشاعر لإظهار علاقته بالوطن والذكريات الماضيّة.

النتيجة

من أهمّ النتائج التي توصّلت إليها هذه الدراسة هي:

□ واجهت القهوة نوع من التحوّل الدلالي من المعنى الجزئي كالضيافة والكرم إلى المعنى الكلي كالوطن والحُبّ والقوميّة والخلجانات الرّوحيّة عند درويش على أساس دلالتها اللغويّة وسياقها في داخل النص الشعري ومدى تماسكها بالألفاظ التي تخرجها من دلالتها المعجميّة إلى المعاني غير المألوفة، فتصبح ذات صبغة رمزيّة ووجوديّة ونفسيّة تكشف عن كينونة الشاعر ومكنوناته النفسيّة ومدى تأثّره بالطبيعة وعناصرها. وجد درويش في رموز القهوة ما يعبّر عن الذات الفلسطينيّة أولاً وعن الذات الدرويشيّة ثانياً، لأنّ القهوة بمثابة التراث الشعبي تُعتبر عنصراً نقديّاً أيدئولوجيّاً في تركيزها على أساس تحرير الوطن من الاحتلال الصهيوني والمقاومة فإنّ هذا الأمر لا ينفصل عن التمنّيات الذاتيّة للشاعر.

□ يعطي الشاعر من خلال القهوة رمزاً يحيله إلى تذكر الذكريّات الماضيّة في وطنه وجلسات السمر والأهل والأحبّة والأصدقاء وأيضاً يرسم بواسطتها تجسيد العلاقة بين الماضي والحاضر مبنيّاً على التعارض بين الماضي العربي بما فيه من الأصالة والهويّة والحاضر الذي يتّصف بفقدان الحريّة والحُبّ والقوميّة والرّوح الوطنيّة. يحاول الشاعر من خلال القهوة أن يوجد المزاوجة بين الذات وعناصر الطبيعة وبين الماضي والتراث وبين الأوضاع المعاصرة لخلق الفضاء الشعري الذي يكتظّ بهموم الشعب الفلسطيني وضياعهم في ظلّ الوطن وأيضا توجد علاقة وطيدة بين المقهى ودرويش بوصفه مكاناً واقعيّاً لإعاده الهويّة العربيّة، وقد يستفيد درويش من المقهى في سبيل المفارقة اللفظيّة للتعبير عن حالته النفسيّة وتجربته الشعريّة عن طريق التعارض بين الكلمات كـ "مضت الحرب لترتاح" و"مواعيدنا في المقهى تصبح المنفى" لكي يخلق دهشة واستغراب في ذهن المتلقي من أوضاع وطنه بما فيه من الاحتلال الصهيوني وفقدان الحريّة والرّوح القوميّة.

□ تقوم القهوة بالدور الحيوي الفعّال في الكشف عن نفسانيّة درويش والتعرّف على عقائده وجهته الفكريّة في الشعر، فإنّها تتعدّى النظرة الحسيّة التي يتفاعل معها الإنسان في أوقات الفراغ لتصبح كالعلامة الدلاليّة التي تنبع من المأساة الفلسطينيّة كأحداث الوطن والتشّرد والسبي وما فرضها الاحتلال الصهيوني من جهة، ووحدته ويأسه وتشأومه واغترابه عن المجتمع من جهة أخرى. لذا فأنّ درويش يتعايش مع القهوة العربيّة بوصفها مشروب ذي جمال أدبي، حيث لاتقوم القهوة بالوظيفة الاجتماعيّة فحسب بل ترتكز على الوظيفة الشعوريّة والثقافيّة في داخل النصّ الشعري. فمن هذا المنطلق يشمل توظيف القهوة في القصائد الشعريّة لدرويش وصف رائحتها

ولونها واحتساءها في الصباح والمساء حين تصطبغ بالصبغة الدلاليّة التي ترجع إلى عمق إحساس ووجدان الشاعر في سبيل تحوّل معناها المألوف إلى مسايرة القضايا المعاصرة.

المصادر

أ) الكتب

أبو إصبع، صالح، (١٩٤٨م): **الحركة الشعريّة في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨حتى١٩٧٥**- ط١، بيروت، موسسة العربيّة للدراسات والنشر.

أبو العدوس، يوسف، (٢٠٠٧م): **الأسلوبيّة والرّويّة والتطبيق**، ط١، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع.

الأرناؤوط، محمد، (٢٠١٢م): **من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي**، لبنان، مركز الدراسات و النشر.

إسماعيل، عز الدين، (د. ت): **الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية**، ط ٢، دار الفكر العربي.

بن صالح، نوال، (٢٠١٦م): **جماليات المفارقة في الشعر العربي المعاصر (دراسة نقديّة في تجربة محمود درويش)**، القاهرة، دار الثقافة العلميّة.

درويش، محمود، (١٩٩٤م): **ديوان محمود درويش**، ج ١، ط ١٤، بيروت، دارالعودة.

درويش، محمود، (٢٠٠٥م): **الديوان**، ج ٢، ط١، بيروت، دارالعودة.

الرّبيحات، عمر أحمد، (٢٠٠٦م): **الأثر التوراتي في شعر محمود درويش**. الأردن، دار اليازوري عمليّة للنشر والتوزيع.

عزوز، أحمد، (٢٠٠٢م): **أصول تراثيّة في الحقول الدلاليّة**، دمشق، اتّحاد الكتّاب.

مصطفى، إبراهيم والآخرون، (١٩٨٩م): **المعجم الوسيط**، ج ٢، إسطانبول، دارالدعوة.

النقاش، رجاء، (١٩٧١): **محمود درويش شاعر الأرض المحتلّة**، ط٢، بلا مكان، دار الهلال.

نمر موسى، إبراهيم، (٢٠٠١م): **صوت التراث والهويّة "دراسة في أشمال الموروث الشعبي في الشعر الفلسطيني المعاصر**، كفر قرع، دار الهدى للطباعة والنشر.

نمر، هادي، (٢٠٠٨م): **علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي**، ط١، الأردن، دار الأمل للنشر.

ب) الرسائل الجامعيّة

بوحجر، محمّد، (٢٠١٨م): «**التجربة الشعريّة عند محمود درويش مقاربة في جماليّة التّلقي**»، أطروحة دكتوراه، الجزاير، جامعة الجيلاني اليابس، كليّة الآداب واللغات والفنون

حامد عويضة، جمانة، (٢٠١٤م): «**بنية النصّ الشّعري في شعر محمود درويش "كزهر اللوز أو أبعد.. نموذجاً دراسة تحليليّة**»، رسالة ماجستر، جامعة الخليل.

خموم، صفاء ووسام لوز، (٢٠١٧م): «**البعد النفسي للحكايّة الشعبيّة نماذج مختارة من الوطن العربي**»، رسالة ماجستير، الجزائر، جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، كليّة الآداب واللغات.

خوّاض، سميه وحسن عثمان، (٢٠١٥م): «**التطوّر اللغوي للكلمة العربيّة في المعرب والدخيل والمولد في مختارات البارودي**»، رسالة ماجستر، جامعة السودان للعلوم التكنولوجيا، كليّة الدراسات العليا، قسم اللغة العربيّة وآدابها.

علي زروقي، عبد القادر، (٢٠١٢م): «**أساليب التكرار في ديوان "سرحان يشرب القهوة في الكافيتيريا" لمحمود درويش**»، رسالة ماحستير، الجزائر، جامعة الحاج لخضر، باتنة.

ج) الدوريات

إسماعيل عمايرة، حنان، (٢٠١٥م): «الدلالات اللغوية للأسلوب في الشعر السيّاب ودرويش نموذجا»، **مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية**، المجلد ٢٣، العدد ١، صص ١٤٣-١٢٣.

بايزيدي، مجيد وآخرون، (٢٠١٥م): «الحريّة الوجوديّة في الرّوايّة العربيّة المعاصرة-دراسة في أصابعنا التي تحترق لسهيل إدريس»، **فصيلة إضاءات نقديّة**، السنة ٥، العدد ١٩، صص ٣٩-٩.

حسن يعقوب، ناصر، (٢٠١٣م): «أشكال التعبير عن دلالات التشظي والغياب في شعر محمود درويش»، **مجلة جامعة دمشق**، المجلد ٢٩، العدد (٢+١)، صص ٥٠٥-٤٦٧.

الشهاوي، صلاح عبد الستّار محمّد، (٢٠١٠م): «القهوة في الثقافة العربيّة والشعبيّة»، **فصليّة علميّة متخصّصة للثقافة الشعبيّة**، السنة ٣، العدد ١١، صص٩٨-٧٤.

صبيحات، أحلام، (٢٠١٠م): «تأثير المقاهي العربيّة على نشأة الصالونات الأدبيّة والتحريض على الثورة الفرنسيّة»، **دراسات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة**، المجلّد ٥٧، العدد ٣، صص٥٠٢-٤٩٢.

فيطس، عبد القادر، (١٤٣٧هـ. ق): «المقاهي الشعبيّة.. الفضاء.. الدلالة الوظيفة»، **مجلة اللغة والأدب**، العدد ١٧، صص١٦٢-١٥٥.

ميرزاي الحسيني وآخرون، (٢٠١٧م): «المصاحبة اللفظيّة في شعر زهير بن أبي سلمى؛ دراسة دلاليّة»، **مجلة الجمعيّة الإيرانيّة للغة العربيّة وآدابها**، العدد ٤١، شتاء ١٣٩٥هـ. ش، صص ١٠٢-٨٣.

قهوه در شعر محمود درویش (بررسی معناشناسی)

کریم کشاورزی[۱]، محمدعلی سلمانی مروست[۲]*، سید فضل‌الله میرقادری[۳]، لیلا رئیسی[٤]

۱. دانشجوی دکترای زبان و ادبیات عربی دانشگاه یزد

۲. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه یزد

۳. استاد گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه شیراز

٤. دانشجوی دکترای زبان و ادبیات عربی دانشگاه شیراز

چکیده

قهوه به عنوان یک نوشیدنی اجتماعی از دورهٔ عثمانی تاکنون از نظر دلالت‌های معنایی دستخوش تغییراتی شده و این دگرگونی‌ها در چهارچوب آداب و رسوم فرهنگی و کاربرد ادبی روی داده است. این واژه در شعر محمود درویش جایگاه ویژه‌ای دارد و در سیاق شعر در کنار کلماتی از قبیل صبح، غروب، جغرافیا و دست، معنای جدیدی به خود گرفته‌است. شاعر با به‌کارگرفتن «قهوه عربی» به بیان تجارب واقعی و یا احساسات و احوال درونی خویش و نیز بازنمایی خاطرات گذشته می‌پردازد و مفاهیم وطن، سرزمین و فرهنگ عربی را به تصویر می‌کشد. او همچنین هویت فلسطینی را برای خواننده ترسیم می‌کند که درگیر مبارزه با آوارگی و تبعید و استعمار است.

پژوهش حاضر بر اساس روش توصیفی ـ تحلیلی می‌کوشد تا با بهره‌گیری از برخی اشعار محمود درویش، جنبه‌های معناشناسی قهوه و واژه‌های مربوط به آن را بازگو کند. این واژه‌ها همزیستی شاعر با این میراث توده‌پسند را به تصویر می‌کشند. نتایج نشان داده قهوه همچون پل ارتباطی میان شاعر و ملت است و مفاهیم مربوط به آن، تعلق شاعر به گذشته و حال و آینده را ترسیم می‌کند و هویت عربی و مبارزه او با استعمار را نشان می‌دهد. درویش بر آن است تا زمان حاضر را با پیوند دادن به ریشه‌های تاریخی بازسازی کند. او به‌واسطهٔ قهوه، در سیاق شعری خود به مواردی ازجمله ملی‌گرایی، تنش‌های درونی و عشق اشاره دارد و معتقد است که امروزه قهوه‌خانه یکی از ابزارهای نقد اجتماعی است که مردم را به پاسداری از میراث و هویت قومی خویش فرامی‌خواند.

کلیدواژه‌ها: شعر معاصر عرب؛ دلالت‌های معنایی؛ قهوهٔ عربی؛ محمود درویش.

*نویسندهٔ مسئول: salmani_ m@yazd.ac.ir